الاستجابة لله بعد القرح

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2009/1/23م

إن الذي يميز المسلمين عن سواهم في السراء والضراء أنهم إذا خرجوا من السراء أو كانوا فيها توجهوا إلى الله، أو كانوا في الضراء أو خرجوا منها توجهوا إلى الله، فلا الضراء تغير مسارهم، ولا السراء تبطرهم وتنسيهم أن الذي هم فيه إنما هو من الله.

ولا أدلَّ على هذا الأمر من قراءتكم لآيتين في كتاب الله تبارك وتعالى على سبيل المثال:

ففي السراء نقرأ قوله تعالى وهو يتحدث عن المجتمع المسلم أو الجماعة، وحينما تكون في تمكين يكون لها ما تريد، واقرؤوا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

فهذا مثال يحكيه القرآن عن سرّ المؤمن حين يكون له التمكين في الأرض، فإنْ هو ملك أو حكم أو أصبحت مقاليد الأمور ميسّرة بيده... امتثل أمر الله تبارك وتعالى، وكان عبدًا له، فأقام الصلاة وآتى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر..

وفي المقابل وفي الوجه الآخر وفي الحالة الثانية اقرؤوا أيضًا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172]

والقرح في اللغة: الجُرح، أي حينما تقع الأمة في جِراحها، وحينما تكون في معاناتها، وحين تألم من عدوها فتدمى وتقطر جراحُها دماءً.

ما الذي كان؟

كانت الاستجابة لله.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أُثخنوا جراحًا في أُحُد، وكان ممن جرح بينهم سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخرج الأصحاب في نهاية الغزوة خائري القوى وفي حالة من الوهن والضعف، تسيل دماؤهم على الأرض، وتعرفون قصة أحد وكيف أحكم النبي صلى الله عليه وسلم الخطة، وكيف أمر الرماة أن يلتزموا مواقعهم ليحموا ظهور الجيش، وكيف أمرهم أن لا يغادروا إلا بأمرٍ مباشر، حتى ولو رأوا نصرًا أو هزيمة، لكن الرماة خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم حينما رأوا غلبة المسلمين وفرار المشركين واجتماع المسلمين على الغنائم، فاجتهدوا وقالوا: ننـــزل ونكون مع إخواننا.

فذكَّرهم البعضُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاكم أن تغادروا مواقعكم حتى تسمعوا أمرًا مباشرًا من النبي صلى الله عليه وسلم، لكن أكثرهم ترك موقعه ونـــزل إلى الغنائم، وكان ما كان حينما التف بعض الفرسان، وانقلب نصر المسلمين إلى بلاءٍ عظيم.

خرج المسلمون من غزوة أحد مضرَّجين بدمائهم في حالة من الضعف الشديد.

وهاهنا يأتي أمر الله سبحانه وتعالى لهم، ويأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله أن يلحقوا بجيش المسلمين.

إنه أمر يقف الإنسان أمامه متأملاً:

الجيش استُهلكت قواه، لكن أمر الله من خلال رسوله صلى الله عليه وسلم يأتي: لابد من الجيش الذي ضرج بدمائه، والذي يعاني من الضعف، أن يتحرك ليلحق بجيش المشركين المنتفخ في نهاية تلك المعركة من الغلبة.

وهاهنا كان الاختبار.

ما الذي فعله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتَها؟

هل قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك تحمّلنا ما لا طاقة لنا به؟

هل قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إننا لا نستطيع؟

هل قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن جراحنا لم تجف وهي تنـــزف، وإن لحوقنا بجيش المشركين يعني موت الكثير منا متأثرًا بجراحه؟

ما الذي حصل؟

الذي حصل يا أمة الإسلام، والأمةُ الإسلامية تخرج من وقعةٍ تاريخية، حينما ثبت بعض الشباب في مدينة صغيرة أمام جيش مدجَّج، إنهم ثلة من الشباب رفعوا لواء الحقّ أمام جيشٍ معتَدٍ مجرم، أمام حفدة القتلة، فقد قتل أجدادهم أنبياء الله، وهم أرادوا أن يثبتوا أنهم على سيرة أجدادهم في قتل الشيوخ والنساء والأطفال.

ونحن نخرج وقلوبنا في حالة من الألم، ولابد إذا أردنا أن نفهم الواقع أن نذكر شواهد من تاريخنا، ومن حياة إمامنا ونبينا وقائدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن توجيه قرآننا، لأننا دائمًا وفي كل الأحوال بحاجة إلى هدايةٍ نهتدي بها، لاسيما والمسلمون اليوم يعانون من التيه والضياع، لأنهم لا يستحضرن في كل حركاتهم كتابَ الله وسيرةَ رسوله عليه الصلاة والسلام.

ما الذي كان أيها الإخوة؟

الذي كان أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومَن كان في الجيش تحركوا باتجاه حمراء الأسد، وعُرفت تلك الغزوة بغزوة حمراء الأسد، فلما سمعت قريش – وكانت تفكر في العودة – قالوا: ما الذي فعلناه؟

بعد أن لاحت لنا بوادر النصر ورأينا ضعفهم كان من الواجب علينا أن نسحقهم، تمامًا كما يقول اليمين المتطرف في الكيان الصهيوني.

هكذا قالت قريش: كان من الواجب علينا أن نسحقهم، وأن لا نترك فيهم حيًّا.

وهم يتشاورون جاء رجل يسمى معبد الخزاعي، وخزاعة مع أنها مشركة لكنها كانت من حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يثبِّط جيش المشركين، لا سيما وقد رأى ما يفكرون به، وما يعزمون عليه، فقال لهم معبد (والخديعة في الحرب إنما هي جزء من التدبير الحكيم): قد تركت محمدًا وأصحابه في حمراء الأسد في جيش عظيم، وقد تحرَّقوا عليكم، فالنجاء النجاء، أي: أنصحكم بالنجاة، فانجوا بأنفسكم لأنهم يريدون الانتقام منكم، فإني أنهاكم عن ذلك، أي أن تعودوا ثانية.

وهكذا وصل الجيش المثخن بالجراح إلى حمراء الأسد، وهرب جيش المشركين.

القضية لا تنتهي هنا، فربما ينتهي الحدث هنا، لكن الدلالة التي يقدمها إلينا القرآن الكريم وهو يحكي عن الحادثة توسع المفهوم، وترشدنا إلى آفاق بعيدة في الحدث.

فما قال الله سبحانه وتعالى: الذين عادوا للقتال من بعد ما أصابهم القرح، وما قال: الذين بذلوا فوق ما تتحمله طاقات الرجال بعدما أصيبوا بالجراح.. لكنه رمز لملخص القضية لتبقى دلالة النص عامة إلى يوم القيامة، حين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

فكانت بليتهم وضرَّاؤهم سببَ ثباتٍ واستجابة، و لم تكن لِتُضعفهم ولا لتصرفهم عن ثوابتهم.

وانظروا إلى ما يحصل اليوم، وانظروا إلى الذين يتاجرون بالدماء..

أعجب وأنا أرصد ما يحصل بعد موقعة غزة، فإذا دخلتم إلى الأرض المحتلة حيث أعداءُ الله، تجدون شعورًا بالغضب.

هكذا تفيد استطلاعات الرأي.

لماذا؟ أَغَضبوا لأن الجيش استخدم الأسلحة المحرمة؟

هل غضبوا لأن الجيش لم يميز بين الشيوخ والأطفال والنساء ومن يقاوم ويجاهد؟

هل غضب اليهود بسبب ما جرى من قصف الطائرات والبوارج والمدرعات...؟

الغضب إنما كان – كما يفيد استطلاع الرأي – لأنهم لم يدمِّروا غزةَ تدميرًا كاملاً.

ولذلك أصبحَتْ أسهم المتطرفين أعلى بكثير، وأصبحت أسهم الذين ينادون بمحو أبناء فلسطين واستئصالهم أعلى من الذين يتحدثون عن المفاوضات.

وتذهب إلى الغرب لترى في الضمير الإنسانيّ كثيرًا من العقلاء الذين بدؤوا يتحركون وفق القوانين الدولية من أجل أن يجرِّموا مَن تسبَّب في تلك المحرقة والمجزرة في غزة، لإدانة قادة الكيان الصهيونيّ في المحاكم، واعتبارهم مجرمي حرب.

الصورتان تمثلان طرفًا بعيدًا عن واقعنا العربيّ:

ففي الكيان الصهيوني غَضَبٌ: لماذا لم تبيدوا غزة؟

والعقلاء في الغرب والقانونيون يحرِّكون الدعاوي ليقولوا: إن قادة الكيان نازيُّون ومجرمو حرب.

فإذا عُدت إلى واقعنا العربيّ وجدتهم يتحدثون: هل نلغي مبادرة السلام أم لا؟

ووجدت من يتحدث مدافعًا عن السلام كالحمامة البيضاء.

ووجدت من يتزلف ويمد يده لأولئك الذين يريدون محو غزة ومحو أبناء فلسطين ومحو كلّ حرّ.

ووجدت من يتزلف ويمد لهم اليد، ويقول لهم: لا أريد لك إلاّ كلّ خير.

وتجد من كان يسمى رئيسًا للسلطة الفلسطينية يمتنع عن توقيع إدانةٍ لقادة الكيان على أنهم ارتكبوا جريمة حرب.

هكذا يظهر واقعنا.

ونخجل عندما نسمع من يقول: "نريد استئصالكم" فإن قلنا: "نريد استئصاله" نجرّم.

إذا طالَبَ أبناء البلد والأرض بأرضهم يكونون أصحاب جريمة، ويجب أن يُمنع عنهم السلاح والإمداد.

والبوارج التي تنقل أعتى أنواع الأسلحة تأتي من وراء البحار لتزود ذلك الكيان المجرم.

وهاهنا أقول: إن ما ينبغي أن يحصل بعد هذه المجزرة، وبعد هذه الموقعة المشرِّفة، أن يتنبه الأحرار، وأن يتنبه أصحاب القضية، وأن يتنبه أبناء الرسالة، وأن يتنبه الشرفاء... مهما كثرت المساومات، ومهما ارتفع ثمن العَرض، ومهما لوَّحوا بعصا التأديب.

هاهنا الامتحان، حين نثبت على ما يتبناه أصحاب الحقّ، ونقول: الأرضُ المحتلة الإسلامية التي رفض بيعها السلطان عبد الحميد، ينبغي أن لا يُتنازل عن ذرةِ ترابٍ منها.

لماذا تعود اللعبة القذرة للتفريق بين ما احتُل عام 1948م وما احتُل عام 1967م؟

هذه اللعبة القذرة، التي يأتي من يرأس الأمم المتحدة في قمة عربية ويقول: الحل هو حدود 1967م.

إذًا: كيف نكون ممن يستجيب لله والرسول من بعد ما أصابنا القرح حينما نتنازل عن ذرة واحدة من التراب اغتصبها أعداء الله؟

القضية هي: هل تقبل المساومات؟

لكن عندما لا يكون للإنسان ضمير، ولا يحمل رسالة، ويكون مُبرِّرًا ميكيافيليًّا كما يقولون... عندها يستطيع أن يتنازل عما لا ينبغي التنازل عنه.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾

المقاومون ما يزالون حتى هذه اللحظة يتابعون في كل ما يقولونه مسيرتهم، ويؤكدون على مبادئهم، وأثمن وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم على ذلك.

لكن ما الذي سيكون والترغيبُ كبير والترهيبُ كبير؟!

هاهنا الامتحان.

هل ستكون الاستجابة لله والرسول من بعد القرح؟

ولا أقول هذا للمقاومين والمجاهدين، لأنني أعتقد طهارتهم وأعتقد صدقهم، لكنني أقول هذا لمن زعم أنه من وراء أولئك المجاهدين بدعمه حسًّا ومعنىً.

نحن أمة مع الأسف لا تضع لها هدفًا واضحًا وتسعى إليه سعيًا عمليًّا.

أعداؤنا منذ زمن طويل يجتمعون في مؤتمرات متكررة منتظمة، ويطبقون ما اتفق عليه، وذلك عبر خطة طويلة الأمد لا يحيدون عنها، لكننا مع الأسف لا ننظر إلا إلى البقعة التي نقف عليها، واللحظة التي نعيشها، فإذا أضحكنا مُضحِكٌ نضحك، وإذا أبكانا مُبكٍ نبكي، وننسى لماذا ضحكنا، وننسى لما بكينا.

أهل الإيمان عنوانهم في الضرّاء: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

وعنوانهم في السرّاء: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

فحينما تكون مقاليد الأمور بيدهم فإنهم يوظفونها من أجل صلةٍ بالله عنوانها إقامة الصلاة، ومن أجل عدالةٍ إنسانيةٍ عنوانها إيتاء الزكاة، ومن أجل قانونٍ واضحٍ لا يتبع المصالح لكنه يتبع المبادئ: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعروفُ مبدأ حدده الله سبحانه وتعالى، ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو ما يتناقض مع المبدأ.

وهكذا بالصلة بالله والعدالة والقانون يكون أهل الإيمان حين تكون الأمور بيدهم، فهم في الحالتين: في الضراء والسراء، مستجيبون لله، موافقون لأمره، منضبطون بطاعته، ليسوا كما يقول المثل: عُبّاد رمضان، فإذا جاء رمضان صاموا وقاموا، وإذا انتهى رمضان عادوا إلى مجونهم وفسوقهم.

فهل سنتخرج من مدرسة غزة، هذه الموقعة التي ينبغي أن تكون حدًّا فاصلاً يستفيد منه المسلمون جميعًا؟

هل سنستفيد من هذه المدرسة أم أننا سنبقى على ما نحن عليه نضحك إذا أضحكونا ونبكي إذا أبكونا؟

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.